

# تجليات الرؤية العرفانية في تحقيق مدارج التربية الروحية

عند روني غينون

## *Mystical Vision in achieving the Stages of Spiritual Education By René Guénon*

مخبر المجتمع الجزائري المعاصر - سطيف  
جامعة سطيف 2- (الجزائر)

فلسفة

\* Amine Talbi طالبى أمين

am.Talbi@univ-setif2.dz

مخبر المجتمع الجزائري المعاصر - سطيف  
جامعة سطيف 2- (الجزائر)

فلسفة

Lyazid Bouarouri اليزيد بوعرووري

l.bouarouri@univ-setif2.dz

\*\*\*\*\*

تاريخ النشر: 2023/05/05

تاريخ القبول: 2023/04/13

تاريخ الإرسال: 2022/06/19

ملخص: تروم هذه الورقة البحثية إلى محاولة طرح رؤية عرفانية روحية في التربية، تقوم على الاعتناء على نحو أفضل- بالتّرقى الروحي وسلك مدارج التربية الروحية، حسب روني غينون، أو عبد الواحد يحيى، الاسم الذي نسبته إلى نفسه بعد اعتناقه الإسلام. ولما كان الفكر التربوي هو عُنْصُرًا أساسيًا في قيام المجتمعات، تعدّدت الرؤى في التربية بتعدّد الأنظمة المعرفية. وقد حاول غينون أن يُنظّر لفكر تربوي من خلال استثمار الرؤية العرفانية الروحية القائمة أساسًا على الحقيقة التّوحيدية والمعرفة الإلهية، في التّأصيل لمدارج التربية والسُّلوك المُشعّ بالقيم والتراث الروحي. ومن ثمّ، التّحقّق بالكمال العرفاني. في مقابل السُّلوك التّربوي الغربي القائم على المادية والروحانية المزوّفة. الكلمات المفتاحية: روني غينون: رؤية العالم: التربية الروحية: التّحقّق الروحي: العرفان.

**Abstract:** This research paper aims to try to put forward a spiritually mystical vision in education, based on taking better care of spiritual progress and pursuing the steps of spiritual education, according to Ronnie Guenon, Since educational thought is an essential element in the establishment of societies, visions of education have multiplied. Guenon tried to theorize an educational thought by investing the spiritual mystical vision based mainly on the monotheistic truth and divine knowledge, in rooting the stages of education and behavior imbued with values and spiritual heritage. Hence, he joined the mystical perfection. In contrast to Western educational behavior based on false materialism and spirituality.

**Keywords:** Rene Guenon; worldview; spiritual education; spiritual certitude; Gnosticism.

### مقدمة:

من المعلوم أن المفاهيم هي أدوات تحليلية للمعرفة. لهذا، يظهر مصطلح رؤية العالم في كثير من الدراسات المعرفية المعاصرة، وفي عدد لا يحصى من التخصصات الأكاديمية من أجل الاتصال بقضايا التصور الكلي للخالق والكون والحياة والإنسان، و، من ثم، الإجابة عن الأسئلة الكونية والكلية حول حياة الإنسان في هذا الكون. وبالتالي بات مصطلح رؤية العالم يُستعمل -بهذا القدر أو ذاك- في مختلف التخصصات والفروع العلمية كالسياسة، الإعلام والاتصال، والأنثروبولوجيا، والفلسفة. ولما كان المصطلح أداة إجرائية لمقاربة قضايا الكون والإنسان، نحاول -على مدار هذه الدراسة البحثية- استثمار هذا المصطلح وتحليل التربية الروحية وحقيقتها على مقتضيات المقاربة الرؤيوية إلى العالم.

وفي هذا المستوى بالضبط، يطرح الفيلسوف الفرنسي المسلم روني غينون، أو عبد الواحد يحيى، الاسم الذي نسبه لنفسه بعد اعتناقه الإسلام، رؤية و/أو تصور عرفاني للعالم يقوم على توطين مدارج التربية الروحية، و، من ثم، التمييز بين هذا النوع من التربية وبين مختلف أشكال الروحانية المزيفة.

ولعلّ الحديث عن تربية روحية بذلك المعنى الذي يطرحه روني غينون، يجعلنا -احتراماً للمقتضيات المنهجية- أن نرجع إلى الطابع التربوي الروحاني الذي لطالما وُجد في الهندوسية، والطاوية، والبوذية، على نحو متفاوت، وأيضاً، ظهور هذه الروحانيات بشكل مزيف في المسيحية. من خلال هذا، يحاول غينون أن يُنظر لفكر تربوي من خلال استثمار الرؤية العرفانية الروحية إلى العالم القائمة أساساً على الحقيقة التوحيدية والمعرفة الإلهية، في التأصيل لمدارج التربية والسلوك الروحي المُشبع بالقيم والتراث الروحي. ومن ثم، التحقق بالكمال العرفاني.

وهنا، في ظلّ هذا الموضوع، قد لا يكفي أن نتساءل بقدر ما ينبغي أن نجرؤ على مُسألة التساؤل نفسه! عن مدى نجاح روني غينون في استثمار العرفان ضمن المقاربة الرؤيوية إلى العالم، و، من ثم، التأصيل للتربية الروحية، فإلى أي مدى يمكن أن تُساهم الرؤية العرفانية في تحقيق مدارج التربية الروحية عند روني غينون؟ وبأي معنى يمكن استثمار مصطلح رؤية العالم كأداة إجرائية لمقاربة التربية الوحية؟

وللإجابة على هذه التساؤلات، استعملنا المنهج التاريخي في البحث عن سيرة الألفاظ ودلالة المفاهيم؛ والمنهج التحليلي في عرض الموضوع استشكالياً واستدلالياً؛ ومناهج أخرى تتطلّبها الدّراسة البحثيّة.

## 1. رؤية العالم، بين المقاربة المفاهيمية وتعدد المنظورات

من المعلوم أنّ المواضيع الفكرية والمعرفية التي لها وقع خاص على المجال الأكاديمي والمعرفي، يجعل الباحث فيها ملزم -على الأقل منهجياً- تناولها بحثاً وتقصيماً، وذلك بالوقوف على سياقاتها اللغوية ودلالاتها المفهومية.

### 1.1 رؤية العالم، اللفظ والمفهوم والمصطلح:

من الواضح أنّ عبارة الرؤية إلى العالم مُكوّنة أساساً من لفظين اثنين هما: الرؤية "Vision" أو النّظر، أو التّصوّر، والعالم كوجهة لهذه الرؤية و/أو التّصوّر. من هنا، ومن أجل التّقصّي المنهجي لأصل هذا اللفظ، من الضروري البحث في دلالاته الاشتقاقية، فنجد أنّ مفهوم "Vision" في الحقيقة منقول عن المفهوم اللاتيني "Visio" المشتق من الفعل "videre" في مقابل الفعل الفرنسي "Voir" الدال على النّظر؛ من هنا كانت دلالة "vision" على التّصوّر أو الرّأي أو ما يُمثّل للنّظر أو هو صورة الشّيء. أمّا مفهوم "La Vision" فلسفياً، فيحمل عادةً معنى الوجه الذي عن طريقه يتمّ تصوّر مجموعة من الأمور المُركّبة؛ ويحمل أيضاً معنى التّمثّل المُتخيّل؛ أو التّمثّل العقلي لواقعة من الوقائع؛ وقد يدل أيضاً على القراءة والرؤية، أو الأمر غير الطّبيعي الذي يتجلّى للفكر. (النقاري، ح، 2018، 319)

يمكن القول أنّ الرؤية تحمل معنى التّصور، أو الرّأي، أو كل ما يمثّل للنّظر العقلي الذي يتعدّى النّظر الحسي، كروية تتجلّى أساساً للفكر والبصر. أمّا الرؤية في معجم لسان العرب، في مادّة رأى: الرؤية بالعين، يُقال رأيتُه بعيني رؤيةً، ورأيتُه رأيَ العين، أي حيث يقع البصر عليه. والرؤيا: ما رأيتُه في منامك. (ابن منظور، ج، 1997، 291) وقد ورد في معجم التعريفات للجرجاني، أنّ الرؤية هي المشاهدة بالبصّر حيث كان. (الجرجاني، ع، 2004، 94)

يظهر من خلال ما سبق، أنّ الرؤية تتعدّى البصّر لتشمّل ما يتصوّره الفكر، بل إنّ ألفاظاً كالرؤية والنّظر والبصّر تشترك في عدد من الدلالات، وتتمايز في أخرى، كما تكررت الصّلة بين الرؤية والرؤيا في قدرة الإنسان على استشراق ما فوق الجسّ

والمادة، إلى التأمّل العميق والتّبصّر في الأمور حتّى تنكشف له حُجب الجِسّ المادّي؛ وتتجلّى للصّوفي في عوالم من الغيب، فيرى بقلبه هذه العوالم ما لا يراه غيره، وقد يُعبّر عنها بلسانه بلغة لا يفهم حقيقتها إلاّ من ذاقها. (ملكاوي، ف، 2021، 25)

ولعلّه من الضّروري التّنبيه، هنا، أنّ أصل مصطلح الرؤية إلى العالم يرجع إلى اللغة الألمانيّة "Weltanschauung" وتعدّدت استخداماته في الحقول الفلسفيّة والدينيّة والعلميّة. ونجد أنّ هذا المصطلح قد أُستعمل في أعمال الفيلسوف الألمانيّ إيمانويل كانط (1804-1724) Kant المترجمة إلى الإنجليزيّة، خاصّة في كتابه نقد ملكة الحُكم "Critique of Judgment" في سياق محدّد يتعلّق بقوة العقل البشري على إدراك كل ما هو حسيّ. لهذا، يلجأ الكثير من الباحثين العرب لاستخدام مصطلح "رؤية العالم" وإلى جانبها اللفظتان المتقابلتان بالإنجليزيّة "WorldView"؛ وبالألمانيّة "Weltanschauung" (ملكاوي، ف، 2021، 52)

يُمكن القول أنّ كل رؤية إلى العالم أو بالأحرى، تصوّر العالم، هو إدراك للوجود وتفاعل مع المحيط، معنى ذلك أنّ كلّ فرد أضحى -بهذا القدر أو ذاك- يحمل تصوّراً مُعيّناً اتجاه العالم وهو نتاج إدراكه للوجود الذي يتواجد فيه. وكأنّ الإنسان و/أو الفرد، يقوم بتشكيل تصور حول العالم انطلاقاً من إدراكه. (الزين، م، 2014، 432)

لهذا، فالرؤية إلى العالم، وعلى الرغم من عدم استقرار ترجمته أو التّدقيق في مضمونه، أصبح يُستخدم بشكل أوسع في مجالات تخالف التّيار الرئيسي لفكر الحدائّة، فهو يُستخدم عادةً في إطار فكر ما بعد الحدائّة، والتعددية الثقافيّة، وعلم النّفس، والتّصورات العلميّة. (أبوزيد، س، 2009، 48)

من خلال هذا، يمكن القول أنّ الرؤية إلى العالم، مفهوم يحمل في طياته التعددية واللامركزية، فقد تعدّدت رؤى العالم بتعدد الفلسفات والأنساق الفلسفية، بل يتعدّى الأمر إلى وجود رؤية علميّة للعالم شكّلت مادّة خصبة للعلم الحديث ولفلسفة العلم، خاصّة في ما طرحه رودولف كارناب (1970-1891) Rudolf Carnap في كتابه "البناء المنطقي للعالم". (الزين، م، 2014، 432) وقد يتقارب مفهوم رؤية العالم مع مفاهيم مجاورة له، كالصورة image، أو التّوجه المعرفي Cognitive Orientation أو الرؤية المعرفيّة Cognitive Vision، أو منظور رؤية العالم Perspective WorldView، أو المبادئ المتضمنة Imlist Premis، أو الخرائط المعرفيّة Cognitive (سيف الدين، ع، 2009، 30) كما نجد له تداخلاً مع مفهوم الرؤية الكونيّة، من حيث هي لون خاصّ من

الاعتقاد والنظر والتقييم للوجود. باعتبار أن لكل مبدأ انطباع محدد يكون بمثابة نمط للتفكير في الكون والوجود، ويعتمد كل من الأديان والشرائع والفلسفات الاجتماعية على رؤية كونية معينة. ولا ينبغي بأي حالٍ من الأحوال أن نخلط معنى الرؤية الكونية بمعنى الإحساس بالكون، وذلك بسبب استعمال كلمة "الرؤية" التي عادةً ما تُفيد معنى النظر الحسي. لهذا، فمعنى الرؤية الكونية هو معرفة العالم، فهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة المعرفة. (المطهري، آ، 1403هـ، 9)

يظهر إذاً، من خلال ما سبق، أن مفهوم الرؤية إلى العالم يتقارب ويتداخل مع مفاهيم مُجاورة له كالرؤية الكونية، كما قد يتقاطع مع مفاهيم أخرى كالأنموذج "Paradigm" الذي طوره الأمريكي توماس كون (1996-1922) في كتابه بنية الثورات العلمية. إذ يُعرّف الأنموذج بأنه « النظرية المعتمدة في مجتمع من الباحثين العلميين في عصر ما إضافة إلى الطرق في البحث ومحاولة حلّ المشكلات وفهم الواقع.» (كون، ت، 1992، 11)

وعليه، فمصطلح الأنموذج، بات -بهذا القدر أو ذاك- يُستعمل ليدلّ على عدد من المعاني مثل المعتقد، والمفهوم، والنظرية، والتقليد، والممارسة، والرؤية إلى العالم. هذا وقد بحث لويس مورجان في دلالات الأنموذج وتبين له أن أوسع هذه الاستعمالات هي تلك التي تعالج النماذج القياسية على أنها رؤى العالم، وأنّ رؤى العالم -في نهاية المطاف- هي طرقٌ مُشتركة في فهم الحقيقة، أو هي مجموعة من الافتراضات التي تقود إلى البحث. رغم أن البعض يُساوي بين الأنموذج القياسي "Paradigm" والرؤية إلى العالم "WorldView" بيد أن بعض الباحثين في علوم التربية يستعملون مفهوم الأنموذج ليدلّ على رؤية إلى العالم، كتصوّر، أو هو مجموعة من المعتقدات التي تولّد المعنى. (ملكاوي، ف، 2021، 62)

## 2.1. رؤية العالم، في تعدّد وتنوّع المنظورات:

تتعدّد رؤى العالم، وأيضاً، تتصارع فيما بينها من أجل اختراق عقول الناس، و، من ثمّ، تتحكّم في الطرق التي يتوجهون بها لفهم الواقع وتحليله. ولعلّ المعيار الذي عن طريقه نلاحظ التنوّع. والتّعدد في رؤى العالم، هو الاختلاف، والتّفاوت في الاجابات التي تقدّمها الرؤى المختلفة عن عدد من الأسئلة الوجودية التي تعني بالوجود المادّي في العالم، واتّصاله بالوجود البشري والمصير والحياة والموت والفكر. (ملكاوي، ف، 2021،

(118)

والأبعد من ذلك، سينبثق عن هذا التصور منهج الحياة الواقعي للإنسان ونواميس نشاطه على ضوء فهم الإنسان لمركزه في الكون، وغايته وجوده في هذا الكون. بيد أن الإنسان -بطبيعته- يميل، وأيضاً، يُميّز الأشياء المتعددة والمتداخلة والمنفصلة بخصائصها المميزة، وهو يدركها -أي الإنسان- من حيث انتمائها إلى مجموع الأشياء التي تمثل وحدة أكبر فيدركها العقل الإنساني فيما يتعلّق بمختلف أشكال السلوك الإنساني وقضايا المجتمع البشري وقيم الدين. (ملكاوي، ف، 2011، 45)

ولما تعددت رؤى العالم، بذاك القدر، وفي المستوى نفسه، تعدد التصور وفهم الوجود والكون، وأصبحت الرؤية إلى العالم تتعلّق أكثر بالأنظمة المعرفية. فكل نظام معرفي إلاّ وله تصوّر ورؤية إلى العالم

وفي هذا المستوى، ينطلق الحديث عن الرؤية الإسلامية إلى العالم في سياق ترجمة المصطلح وتعدّد استعماله، وهذا التعدّد مكّن العقل الإسلامي من تطوير الفهم السليم للكون والحياة والإنسان، ذلك أنّ العقل الإنساني بطبيعته يُميّز الأشياء المتعددة والمنفصلة بحقائقها والمتعلقة بالسلوك الإنساني وقضايا المجتمع البشري وقيم الدين. (ملكاوي، ف، 2011، 45)

ومن ثمّ، فأيّ سلوكٍ أو نشاط بشري في مجتمع ما، يتمّ فهمه في ضوء رؤية كونيّة تحكمه وتؤطره وتُشكّل معالمه؛ معنّى ذلك أنّ الصوورة المنعكسة في أذهاننا عن الوجود، لها تأثير مباشر في السلوك الاجتماعي وحياة الفرد والمجتمع. وبهذا، تتحدّد الرؤية الكونيّة للفرد طبقاً للأبعاد الاجتماعية والماديّة والمعنويّة التي تُميّزه، وأنّ الصورة الذهنيّة للعالم، لدى كل شخص، تتلاءم وتتواءم مع إمكانات مجتمعه. لهذا، فالعالم الخارجي في نظر الفرد هو صورة منعكسة للمجتمع، أو هو صورة ذهنية يحملها الفرد اتجاه العالم. (شريعتي، ع، 2007، 39)

فالتصور الإسلامي إذًا، له خصائصه المتميزة، التي تفرده عن سائر التصورات، وتجعل له شخصيته المستقلة وطبيعته الخاصة المختلفة عن باقي التصورات، هذه الخصائص قد تعدّد وتنوّع، لكنّها تتوافق وتلتقي مع خاصيّة واحدة، هي التي تنبثق منها وتُرجع إليها سائر الخصائص. إنّها الخاصيّة الربانيّة، أو التصور الرباني الذي تتطوّر البشريّة في إطاره وترتقي في إدراكه. (قطب، س، دت، 41)

## 2. الروحانية بين التراث الشرقي والرهبانية المسيحية

لعلّ هذا الاختلاف والثقافات جعل البعض يقترح رؤية تربوية عرفانية تستمد مشروعيتها من الدين كمعطى إلهي غيبي. وعلى العموم، تقوم هذه الرؤية التربوية الروحية على تحصيل التربية من داخل الدين وفق تعاليم الشرع الإلهي؛ وهذا الأخير بالنسبة للإنسان كالأصل بالنسبة للفرع، بيد أنّ التدوين ليس مجرد سلوك تعبدي يلجأ إليه الإنسان؛ إنّما هو طريقة لتحقيق الذات في الوجود، بحيث يوجد المسلم في الدين وجوده في العالم. (طه، ع، 2016، 26)

### 1.2. أخطاء تتعلق بالتربية الروحية، أو النزعة الروحانية المُزيفة:

ومن المعلوم الذي لا مرأى فيه أنّ الإسلام كعقيدة يظهر فيها قسمين متكاملين هما: الظاهر، متمثلاً في الشريعة التي يشترك فيها الجميع؛ والباطن، كحقيقة مخصصة بالصّفة. وعلم الباطن، كوسيلة وكغاية هو المُسمّى في العربية بالتصوف، كمصطلح يدل على كل مذهب باطني قويم، أو منهج في التربية الروحية الصّحيحة. (غينون، 2013، صفحة 20)

والحديث عن العرفان كروية ومنهج في الحياة يقوم على الإعتناء على نحو أفضل بالتربية الروحية. يُحيلنا -بتعبير روني غينون- إلى ضرورة التمييز بين مناهج التربية الروحية العرفانية: ومنهج الرهبانية المسيحية Mysticism، ذلك أنّ عدم التمييز بين وجهتي النّظر المتناسبتين يُعدّ من الأخطاء التي يتردد وقوعها بهذا القدر أو ذاك. فلطالما وصفت المذاهب الشّرقية - بما فيها التصوف الإسلامي- بأنّها مذاهب رهبانية، والأمر يتعلّق هنا بأراء بعض المستشرقين، ويدفعهم ذلك إلى إرجاع كل ما وُجد، ولا يزال يُوجد، في الشّرق إلى نظرة غربية، أي إلحاق كل المذاهب العرفانية الروحية الشّرقية بالديانة المسيحية التي تتميز بالرهبانية الميسستيزم Mysticism، وليس ذلك سوى مُعارضته للتصوف، ورفض الإعتراف بشيء خارج الحضارة الغربية. (غينون، ر، 2014، 5). معنى ذلك، أنّ الاستشراق يأبى الإعتراف بالمذاهب الشّرقية، بما في ذلك العرفان الإسلامي من حيث هو تربية روحية، والحقيقة أنّ التصوف ليس شيئاً مُضاهياً إلى الدين الإسلامي؛ بقدر ما هو، على العكس من ذلك، جزء جوهريّ من الدين. وعليه، فالافتراضات التي تكتسي طابع الاستعجال تزعم أنّ أصل التصوف أجنبيّ دُخِل عن الإسلام! غير مُبرّرة، كون وسائل التعبير الخاصة بالتصوف الإسلامي ترتبط ارتباطاً وثيقاً

بتراكيب اللغة العربية. (غينون، ر، 2013، 21) لهذا، لا ينبغي بأي حالٍ من الأحوال أن نخلط بين التربية الروحية الباطنية كما هي في المذاهب والملل الشرقية، والرهبانية التي تتميز بها المسيحية.

وليس ثمة خلافٌ في أنّ العرفان يهدف إلى الوصول للحقيقة، أو بالأحرى، الإتصال بالحقيقة عن طريق حالةٍ روحية خاصة تُدرِك إدراكاً ذوقياً مباشراً (عفيفي، أ، 2020، 12) وكون التربية، بما هي رؤية روحية عرفانية، تتمثل أساساً في تبليغ نوعٍ من الفاعلية الروحية، وهذا التبليغ لا يُمكن أن يتحقق إلاّ بشعيرة يتم بواسطتها تحديد الفاعلية، يتأتى علينا التنبه هنا، أنّ الرؤى الرانجة التي تُصوّر التربية الروحية كمجرد نمط أخلاقي أو اجتماعي، هي مفاهيمٌ ضيقةٌ وسطحيةٌ يغلب عليها طابع الإستعجال، (غينون، ر، 2014، 15) بيّد أنّ الحديث عن التربية الروحية يُصاحبه الحديث عن العوالم الروحية، أي المقامات العُلوية للكائن، ونعني بذلك المقامات فوق الفردية التي تتعدى الأحوال والملكات النفسانية، والتي هي موضع اهتمام المدارس التربوية الرانفة في الغرب الحديث، إذ تعني بتطوير القدرات النفسانية المزعومة الكامنة في الإنسان. (غينون، ر، 2014، 16)

ولهذا، فتحقق الفرد بالتربية الروحية يُشترط عليه الإستعداد، أو قل، اللياقة الفطرية، بيّد أنّ هذا الإستعداد يجعل صاحبه على أتمّ الإستعداد لتلقي التراثات الروحية، وبغياب هذا الشرط، لا يُمكن بأيّ حالٍ من الأحوال الإنتقال من القوة إلى فعل التّحقق. (غينون، ر، 2014، 19)

ومن البين، أنّ الإنخراط في التربية والتّرقى الروحي، يتمثل أساساً وحصراً في تبليغ الفاعلية الروحية، وهذا التّنظيم لا يُمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن يتحقّق إلاّ عبر تنظيم تراثي سويّ، بحيث لا يُمكن الحديث عن ذلك الإنخراط الروحي خارج الإرتباط بمثل هذا التّنظيم. وهذا المعنى، تفترض النظامية إقصاء جميع التّنظيمات التربوية الرانفة، أي جميع التّنظيمات التي لا تحوز أي فاعلية روحية، مهما كانت مزاعمها والمظاهر التي تكتسبها. وعلى هذا، يُمكن تقسيم التّنظيمات الروحية إلى تنظيمات ظاهرة، وهي تعني بالأشكال الحضارية وهي مفتوحة على الجميع دون استثناء؛ وتنظيمات باطنية روحية، وهي مخصصة بالصّفوة لا يُقبل الإنخراط فيها إلاّ الحائزون على تأهيلٍ خاصّ هي تنظيمات التربية الروحية العرفانية. (غينون، ر، 2014، 45، 47)



يُمكن القول إبدأً، أنّ التَّربِيَّةَ الرُّوحِيَّةَ كما وضَّحَها روني غينون، تقتصر على ضَرُورَةِ الإنخراط في تنظيمات التربية التي تحتوي على الفاعليَّة الروحيَّة، والتي من شأنها أن تُفُود المُنخرط فيها نَحْوَ التَّربِيَّةِ والتَّحَقُّقِ الرُّوحِيِّ. و، من ثَمَّ، قَطَعَ الصِّلَّةَ مع كل أشكال التَّنظيمات التَّربويَّة الرَّائفة.

## 2.2. المرتكزات التراثية للتربية الروحية:

من الضَّروري، على الأقل منهجياً، وقبل تناوُل حقيقة التَّربِيَّة الروحيَّة وفعاليتها، أن تَفحصَ هذه الحقيقة ضمن النُّظريات التراثيَّة التي اعتنت بالتَّربِيَّة الروحيَّة. عملاً بالحقيقة القائلة، لا وجود من العَدَم، فالتَّربِيَّة الروحيَّة المستفاد من الرُّؤى العرفانيَّة الروحانية باختلاف هذه الرُّؤى وتفاوتها في الحضارات الشَّرقيَّة-

وفي هَذَا المستوى بالضَّبَط، يرى روني غينون أنّ الملكِيَّة الروحيَّة -والتي لها شرعيَّة إضفاء التَّربِيَّة الروحيَّة- قَدْ وُجِدَت في الحضارات التراثيَّة على نَحْوِ مُتفاوت. يُسمِّيها غينون بـ"ملك العالم" الذي يحوز الملكِيَّة الروحيَّة على حدِّ قوله، ومن أبرز هؤلاء نجد مانو Manu، المُشرع الأصلي القديم، الذي يتكرر اسمه بأشكال مختلفة لدى الشعوب القديمة، فيُعرف باسم مينا Mina أو ميناس Ménés عند المصريين القدامى؛ وباسم مانو Menw في أوربا الوسطى والغربية قبل العهد المسيحي؛ ويُعرف باسم مينوس Minous عند الإغريق. ولعلَّه من الضَّروري التَّنبيه هنا أن هذه الأسماء ليست على الإطلاق شخصيات تاريخيَّة ولا أسطوريَّة، بقدر ما هي "مبدأ" العقل الكلي الكوني العاكس للنور الروحي الخالص، وهو الذي يصوغ الشريعة الملائمة لأوضاعنا الوجودية والقيميَّة. (غينون، ر، ملك العالم، 2013، 13)

وفي المقابل، ينبغي الإشارة إلى أنّ هذا المبدأ يُمكن أن يتجلى في مركز رُوحِي مؤسَّس في العالم الأرضي من خلال تنظيم مُكلَّف بالحفظ الكامل لأمانة التراث الرُّوحِي المقدَّس ذي الأصول غير بشريَّة. أي من الوحي الإلهي الذي عن طريقه يتواصل تلقِّي الحكمة الأصليَّة لمن هم أهل لها عبر العصور. (غينون، ر، ملك العالم، 2013، 13) لكن، وعلى العموم، يرى روني غينون أنه لا يُمكن أن نعتبر العقليَّة الشَّرقيَّة نقيضاً تاماً للعقليَّة الغربيَّة؛ ولا يُمكن، على العكس من ذلك، أن نتحدَّث عن حضارة شرقيَّة بالمستوى نفسه الذي نتحدَّث به عن حضارة غربيَّة. ذلك أنّ الحضارات الشَّرقيَّة لها أسسها الخاصَّة التي تختلف في الحضارات الأخرى كالحضارة الغربيَّة على سبيل المثال لا

الحصر. (غينون، ر، 2002، 61)

ولو أننا سألنا أنفسنا بجرأة عن أي أرضٍ من هذه الدنيا قام العقل الإنساني بأعمق تأملاته حول أهمّ مسائل الحياة، لأشرنا دون تردد إلى الهند؛ والأبعد من ذلك كلّهُ أننا تغدّينا على الأدب الغربي اليوناني والروماني، ونحن إن حاولنا أن نستخرج الخلفية الجوانبية الروحيّة ليس لحياتنا فحسب بل للحياة الكونيّة الأبدية. لأشرنا على نحوٍ مباشرٍ إلى التراث الشّرقي في الهند. (هوستن، س، 2007، 30) على خلاف الغرب، فمن المعلوم أنّه لا يوجد في متناول العالم الغربي لغة مقدّسة سوى اللغة العبريّة، وهذا بسبب التّواصل القائم بين التراث العبري والتراث المسيحي، وبسبب إندراج النصوص العبريّة في الكتب المسيحيّة، ولعه من الضروري التّمييز بين اللغات المقدّسة، واللغات المستعلمة في الطقوس الدينيّة والتعبديّة. (مفتاح، ع، 2019، 380)

ولهذا، ومن خلال ما سبق، يبدو أنّ التّزعات الروحانيّة تختلف بين الحضارات بين نزعة روحيّة وأخرى مزيفة، ولعلّ على الأقل حسب روني غينون- أنّ الهندوسيّة تحتوي على أسرار روحيّة عرفانيّة قد لا نعرّعلمها في حضارات أخرى كالغربيّة المسيحيّة. فلعلّ ما يتعلّق بالمسيحيّة في عهدها الأولى مغلّف بالغموض والتأمّل في بعض الشّعائر والطقوس المسيحيّة، فتظهر وكأنّها إبراز خارجي لشعائر من طرازٍ تلقيني، تربوي روحاني، وعرفاني باطني، وعلى العكس، وخلافاً للديانة اليهودية السّابقة للمسيحيّة، والدين الإسلامي الذي جاء بعدها، لا توجد في المسيحيّة معالم دقيقة واضحة للجوانب الشّرعيّة المتعلقة بالمعاملات، وما يُؤكّد ذلك، أنّها -أي المسيحيّة- قد اعتمدت في هذا الجانب على تكييف القانون الروماني القديم، (مفتاح، ع، 2019، 381)

### 3. نحو توطين مدارج التّربيّة الروحيّة

لا يخفى على كل ذي بَالٍ أنّ التّربيّة الروحيّة تتعدّى -بهذا القدر أو ذاك- كل مستويات التّربيّة الماديّة التي تفرضها النزعات العقلانيّة والفرديّة المعاصرة، بيد أنّ هذه الأخيرة، أي التّربيّة الغربيّة، قد تأثّرت بعوامل الحدائّة المتمثّلة أساساً في العقلانيّة والتّحرر والماديانيّة.

غير أنّ التّربيّة التي نحن بصدد شرحها، و، من ثمّ، تحليلها، تعتنى على نحوٍ إصلاحي بالإنسان، فالتّربيّة الروحيّة تتمثّل، إن صحّ التعبير، في ما يتعدّد التعبير عنه؛ وبالتالي سيتعدّد، أو على الأقل، سيصعبُ تليغّه أيضًا. وذلك من أجل التّفريق بين تنظيمات

التَّربِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ وغيرها من التَّنظِيمَاتِ السَّرِيَّةِ الأُخْرَى. ومن ثَمَّ، التَّمْيِيزُ بَيْنَ التَّنظِيمَاتِ التَّربَوِيَّةِ الجَوْهَرِيَّةِ؛ وَبَيْنَ كُلِّ مَا يُضَافُ إِلَيْهَا بِصِفَةِ عَرْضِيَّةٍ. إِنَّ حَقِيقَةَ التَّعْلِيمِ الرُّوحِيِّ أَنَّهُ لَا يَسْتَعْمَلُ سِوَى الشُّعَائِرِ وَالرَّمُوزِ الَّتِي تُلْهِمُ، بَدَلًا مِنَ الإِفْصَاحِ بِالمَعْنَى الظَّاهِرِ وَالمَأْلُوفِ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ. (غِينُون، ر، نَظَرَاتُ فِي التَّربِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، 2014، 81) وَعَلَيْهِ، فَمَا تُبَلِّغُهُ التَّربِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ لَيْسَ هُوَ السِّرُّ، وَإِنَّمَا الفَاعِلِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ الَّتِي تَحْمِلُهَا الشُّعَائِرُ، وَالتِّي تَتِيحُ القِيَامَ بِالتَّعَالِيمِ البَاطِنِيَّةِ. وَعَنْ طَرِيقِ المُجَاهَدَةِ وَالاِتِّزَامِ يَمكِنُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُدْرِكَ السِّرَّ وَيُنْفِذَ فِيهِ -بِحَسَبِ قَدْرَاتِ فَهْمِهِ وَإِمكَانِيَّةِ اسْتِيعَابِهِ. (غِينُون، ر، نَظَرَاتُ فِي التَّربِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، 2014، 82)

يَظْهَرُ جَلِيًّا، مِمَّا سَبَقَ، أَنَّ حَقِيقَةَ التَّربِيَّةِ تُعَدِّي وَتَتَجَاوَزُ التَّنظِيمَاتِ السَّرِيَّةِ الَّتِي تُضَافُ إِلَى التَّربِيَةِ الرُّوحِيَّةِ الجَوْهَرِيَّةِ. مِنْ هُنَا، يَمكِنُ القَوْلُ أَنَّ التَّربِيَّةَ الرُّوحِيَّةَ تَتَجَلَّى بِشَكْلِ مَبَاشِرٍ فِي تَبْلِيغِ الفَاعِلِيَّةِ القَائِمَةِ عَلَى الشُّعَائِرِ الرُّوحَانِيَّةِ. وَلَعَلَّهُ مِنَ الضَّرُورِيِّ الإِشَارَةُ إِلَى سِرِّ آخَرَ غَالِبًا مَا يَوجَدُ فِي التَّنظِيمَاتِ التَّربَوِيَّةِ، وَهُوَ السِّرُّ المُتَعَلِّقُ إِذَا بِجَمَلَةِ الشُّعَائِرِ وَالرَّمُوزِ المُسْتَعْمَلَةِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ التَّنظِيمِ؛ وَإِنَّمَا بِكَيْفِيَّةِ أَحْصَى وَأَكْثَرَ انضِبَاطًا. وَمِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ مَا يُعْرَفُ بِالتَّربِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ يَنْبَغِي، عَلَى نَحْوِ الضَّرُورَةِ، العَوْدَةُ إِلَى شَرَطِ التَّربِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ، وَذَلِكَ مَا يُعْرَفُ "بِالمُؤَهَّلَاتِ". وَمِنْ المَعْلُومِ أَنَّ المُؤَهَّلَاتِ تَرْجِعُ حَاصِرًا إِلَى مِيدَانِ الفَرْدِيَّةِ، مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَنْبَغِي بِالضَّرُورَةِ أَخْذَ الفَرْدِيَّةِ كَوَسِيلَةٍ وَكقَاعِدَةٍ لِلتَّحْقُقِ بِالسُّلُوكِ الرُّوحِيِّ، وَعَلَيْهِ، فَلأَبْدُ مِنْ حَيَاةِ هَذَا الشَّرْطِ "الفَرْدِيَّةِ" مِنْ أَجْلِ القِيَامِ بِهَذَا الدَّورِ. وَالأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَنَّهُ لَابَدُّ لِلشَّخْصِ الَّتِي يَبَاشِرُ سُلُوكَ التَّحْقُقِ الرُّوحِيِّ أَنْ يَنْطَلِقَ مِنْ وَضْعِ مَعْيَنٍ فِي حَالَتِهِ الرَّاهِنَةِ. (غِينُون، ر، نَظَرَاتُ فِي التَّربِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، 2014، 87)

إِنَّ مَا يُعْرَفُ بِالتَّربِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ يُمكِنُ أَنْ تَلْقَى عَلَى نَحْوِي مُتَنَاسِبٍ مَعَ مَا يُعْرَفُ بِالتَّدْرِيبَاتِ الرُّوحِيَّةِ، وَإِنَّ اسْتِعْمَالَ كَلِمَةِ رُوحِي Spiritual بَاتِ أَكْثَرَ مِنْ ضَّرُورَةٍ؛ لِأَنَّ أَيْبَا مِنْ النُّعُوتِ الأُخْرَى المُتَاحَةِ، كَالتَّدْرِيبَاتِ الجَسَدِيَّةِ، وَالتَّدْرِيبَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَالخُلُقِيَّةِ أَوْ التَّدْرِيبَاتِ الذَّهْنِيَّةِ الفِكْرِيَّةِ، وَإِنَّهُ لَا يَسْعُنَا سِوَى القَوْلِ أَنَّ التَّدْرِيبَاتِ الرُّوحِيَّةِ تَخْتَلِفُ شَكْلًا وَمَضْمُونًا عَنِ بَاقِي التَّدْرِيبَاتِ المَعْرُوفَةِ، بَيِّدَ أَنَّهَا، أَيُّ التَّدْرِيبَاتِ الرُّوحِيَّةِ، تَسَاهِمُ عَلَى نَحْوِ فَعَّالٍ فِي عِلَاجِ الانْفِعَالَاتِ الحَيَاتِيَّةِ، وَهِيَ أَشْبَهُ بِتَغْيِيرِ رُؤْيَتِنَا إِلَى العَالَمِ وَتَغْيِيرِ بِنْيَا فِي شَخْصِيَّةِ الإِنْسَانِ، ذَلِكَ أَنَّ كَلِمَةَ رُوحِيَّةٍ تَدَلُّ عَلَى أَنَّ تَبْصُرْنَا بِهَذِهِ التَّدْرِيبَاتِ

التي ليست نتاج الفكر وحده؛ بقدر ما هي نتاج النفس كلها، وبفضل هذا النوع من التربية يدفع الفرد نفسه إلى حياة الروح. (بيار، ه، 2019، 94)

من هنا يظهر جلياً مدى ضرورة الاعتناء على نحو أفضل بالتربية الروحية من حيث كونها اعتناء بالإنسان -أولاً- وتساهم بشكل فعال في علاج الانفعالات الحياتية -ثانياً- ناهيك على مساهمتها في تغيير رؤيتنا إلى العالم.

### الخاتمة:

يمكن القول في نهاية المطاف أنّ الرؤية إلى العالم بوصفها أداة إجرائية لمقاربة الفهم والتّصوّر البشري، يمكن استثمارها -بهذا القدر أو ذاك- في توطين التربية الروحية القائمة أساساً على مبادئ عرفانية مَحْضَة، ومن خلال هذه المقاربة الرؤيوية إلى العالم، يمكننا القول، بما لا يدع مجالاً للشك أنّ التربية الروحية، ومن ثمّ، التّدريب الروحي، كان لا يزال، رؤية قائمة بحدّ ذاتها في الحضارات الشّرقية القديمة.

وقد نجح روني غينون في قراءته التحليلية والنّقديّة للحضارة الغربيّة، ناقداً إياها نقداً لادّعاءً، وذلك بتنبه الغرب، وأيضاً، الحدائثة إلى التّعاليم الباطنيّة التي لا تزال تؤسّس للتّربية وصقل الإنسان روحياً. وليس هذا فحسب، بل إنّ المسيحيّة في فترة ما كان لها دور إنقاذي بعد التّديني الرّهيب الذي طال الفكر الروماني.

إنّ الحديث حول التربية الروحية، من حيث كونها تربيّة ذوقية حديث عن عروج النّفس بعد إعتاقها من سجن الأنبيّة، وتحرر الروح من هذيان الماديّة، وبؤس العقلائيّة، وسيطرة الفردانيّة. التي جعلت الإنسان والغرب، تحديداً، يحمل بذور فنائه. ولعلّ مهمة إنقاذ الإنسان تكمن، في حقيقة الأمر، في ضرورة العودة للتعاليم العرفانية الروحية، أو المعرفة بما فوق الطبيعة في الشّرق، من أجل التّهل من التعاليم الروحانيّة.

## المصادر والمراجع

1. أبو العلا عفيفي. (2020). التصوف الثورة الروحية في الإسلام. المملكة المتحدة: مؤسسة هندواي.
2. آية الله المطهري. (1403هـ). الرؤية الكونية التوحيدية. السعودية: فجر الإسلام.
3. توماس كون. (1992). بنية النورات العلمية. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
4. جمال الدين ابن منظور. (1997). لسان العرب. بيروت، لبنان: دار صادر.
5. سمو النجاري. (2018). معجم التنلسف الغربي. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.
6. روني غينون. (2002). مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية والهندوسية بشكل عام. القاهرة، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
7. روني غينون. (2013). التصوف الإسلامي المقارن وتأثير الحضارة الإسلامية في الغرب (أريد، الأردن: عالم الكتب الحديث.
8. روني غينون. (2016). شرق وغرب. أريد، الأردن: دار الكتاب الحديث.
9. روني غينون. (2013). ملك العالم (الإصدار 1). أريد، الأردن: عالم الكتب الحديث.
10. روني غينون. (2014). نظرات في التربية الروحية. أريد، الأردن: دار الكتاب الحديث.
11. سميث هوستن. (2007). أديان العالم. مصر: دار الحسور الثقافية.
12. سمير أبو زيد. (2009). العلم والنظرة العربية إلى العالم. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
13. سيد قطب. (دت). خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. القاهرة: مطابع الشروق.
14. عبد الباقي مفتاح. (2019). الملة الأصلية. الجزائر: المكتبة الفلسفية الصوفية.
15. عبد الرحمن طه. (2016). من الإنسان الأتر إلى الإنسان الكوثر. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.
16. عبد الفتاح سيف الدين. (2009). العولة والإسلام رؤيتان إلى العالم. دمشق: دار الفكر.
17. علي بن محمد السعيد الجرجاني. (2004). معجم التعريفات. القاهرة، مصر: دار الفضيل.
18. علي شريعتي. (2007). الإنسان والعالم. العراق: دار الأمير للثقافة والعلوم.
19. فتحي حسن ملكاوي. (2021). رؤية العالم. عمان، الأردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
20. فتحي حسن ملكاوي. (2011). منجية التكامل المعرفي. فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
21. محمد شوقي الزين. (2014). الثقافة في الأزمنة العجاف. بيروت، لبنان: منشورات ضفاف.
22. هادو يبار. (2019). الفلسفة طريقة حياة. القاهرة، مصر: رؤية للنشر والتوزيع.